دراسات تاريخية المجلد11 العدد 01 السنة 1445هـ/2023م ص ص 192/180

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

تاريخ البحث البلاغي لدى المعتزلة من القرن الثاني إلى الخامس هجري.

The history of rhetorical research among the Mu'tazila from the second to the fifth century AH

د/ بومقواس محمد

Mohammed Boumegouas

جامعة عمار ثليجي- الأغواط

مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب

med.boumegouas@lagh-univ.dz

الارسال: 2023/08/05 القبول :2023/12/30 النشر:2024/01/05 المرسل: Mohammed Boumegouas

الملخص:

نسعى في هذا البحث إلى إظهار مرحلة تاريخية مهمة في التأسيس للبحث البلاغي؛ تتمثل في بيان أثر المعتزلة في البحث البلاغي؛ تأسيسا ونشأة وتطورا، بداية من القرن الثاني للهجرة مع بشر بن المعتمر والجاحظ، مرورا بالرماني وصولا إلى ما أنجزه الزمخشري في القرن السادس، فقد اهتم المعتزلة بمسائل البلاغة وفنون القول وقضايا البيان، لتكون البلاغة وسيلة للدفاع عن الإسلام ومناظرة أعدائه من أصحاب العقائد الأخرى، فالبلاغة لدى المعتزلة وسيلة من وسائل الحجاج والإقناع، وسلاحا في المناظرة والجدل، والمنهج التارخي هو السبيل الأنسب لتتبع أعمال علماء المعتزلة من القرن الثاني إلى السادس هجري، وللوصل إلى ذلك لا بد من معرفة فكر المعتزلة لنستنبط الأثر على البلاغة العربية، من النشأة إلى التطوروصولا إلى النضج، ونمثل لكل مرحلة بر ائد من رواد البلاغة العربية، لنصل إلى صورة واضحة موضوعية عن جهود المعتزلة و أثرهم على البلاغة العربية.

الكلمات الدالة : المعتزلة، البلاغة العربية، النشأة، التطور، الإزدهار.

Abstract

In this research, we seek to show an important historical stage in the establishment of rhetorical research, represented in the statement of the impact of the Mu'tazila in rhetorical research, foundation, emergence and development, starting from the second century of migration with Bishr bin Al-Mu'tamr and Al-Jahiz, through Al-Rumani to what Al-Zamakhshari accomplished in the sixth century, the Mu'tazila was interested in issues of rhetoric, the arts of saying and the issues of statement, so that rhetoric is a means of defending Islam and debating its enemies of other beliefs, rhetoric for the Mu'tazila is a means of pilgrims and persuasion, and a weapon in Debate and controversy, and the historical approach is the most appropriate way to follow the work of Mu'tazila scholars from the second to the sixth century AH, and to reach this it is necessary to know the thought of the Mu'tazila to deduce the impact on Arabic rhetoric, from inception to development to maturity, and represent for each stage a pioneer of Arabic rhetoric, to reach a clear and objective picture of the efforts of the Mu'tazila and their impact on Arabic rhetoric.

Keywords. Mu'tazila, Arabic rhetoric, origin, development, prosperity.

مقدمة:

ترك المعتزلة تراثا ضخما شمل كل الفنون، فعقيدتهم التي تقدم العقل على النقل في أغلب المسائل مكنتهم من امتلاك وسائل الإقناع باسلوب فيه إمتاع يتمثل في أثرهم في بناء طرق القول والكلام به، من أجل التغلب على الخصوم وخاصة من الملل الأخرى التي هي من غير الإسلام، ناهيك عن الفرق الإسلامية التي كانت طرفا مناوئا للفكر الاعتزالي، وعلى رأسهم الأشاعرة الذين استطاعوا مجابهة معتقداتهم، فنحن نسعى إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة أهمها: من هم المعتزلة؟ هل لهم أثر واضح في بناء الدرس البلاغي؟ من هم أعلام هذا المنهج الذين لهم أثر في التأسيس للبحث البلاغي العربي؟ ومنه تكون إشكالية البحث الأساس: إلى أي مدى يمكن أن نعد أعمال المعتزلة هي الحجر الأساس الذي نشأت منه البلاغة؟ فهدف البحث هو إثبات مرحلة تاريخية مهمة جدا كانت هي حجر الأساس في نشاة الدرس البلاغي العربي من جانبه الإقناعي خاصة، وللوصول إلى إجابة مقنعة للإشكالية المطروحة سابقا؛ تكون خطة بحثنا على النحو الآتي: أولا: نشأة الفكر الإعتزالي وعقائدهم، ثانيا: مرحلة النشأة وروادها، ثالثا: مرحلة التطور وروادها، رابعا: مرحلة الإزدهار ممثلة في الزمخشري خاصة، لننهي بحثنا بخاتمة نبين فيها أهم النتائج.

1. نشأة الفكر الإعتزالي وعقائدهم:

انطلق الرعيل الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من التسليم التام والإنقياد لما جاء به القرآن الكريم من آيات محكمة أو حتى ما تشابه منه، شعارهم السمع والطاعة دون إعمال العقل القاصر الذي هو أدنى من أن يبلغ مراد الله عز وجل من تلك الآيات، إلا ما فسره القرآن بالقرآن أو بما فصله النبي ﷺ من أحكام أتت مجملة في القرآن تفسرها السنة النبوية، ودون جدال عقيم يؤدي إلى مهلكة للدين والعقيدة، وعلى هذا النهج سار الصحابة والتابعون، فقد كانوا ينهون عن الخوض في المسائل المتشابهة، وعن الخوض في الجدل في أمور الدين التي هي في الأصل توقيفية، ولكن بعد اتساع الدولة الإسلامية وتعدد الأعراق والشعوب الداخلة للإسلام بدأ يسري نوع من الطمع السياسي والنزوع القبلي وظهور الشعوبية؛ فبدأت الفتن والخلافات التي كانت سياسية بالدرجة الأولى، وما لبثت حتى مست أمور الدين والعقيدة، فكان الخصام أولا حول مسائل الخلافة ومن هو أحق بها، وانتقل الحديث عن نكبات الأمة؛ أهي من باب القضاء والقدر أم هي من فعل الناس؟ فظهرت النزاعات الفكرية العقدية حول هل الإنسان مخير أم مسير؟ ثم بدأ الجدال العقدي الأساس في الجماعات المتحاربة التي تسقط، وهي في صف علي أو في صف معاوية رضي الله عنهم، ما حكمهم؟ وما قول الدين فيهم؟ هل هم شهداء أم معتدون؟ وعلى هذا بدأت الخلافات وانتشرت وتوسعت من خلافات سياسية إلى خلافات تمس الدين والعقيدة، وقد برزت المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء الغزال (131هـ) الذي كان تلميذاً للحسن البصري، ثم اعتزل حلقة الحسن بعد قوله بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين (أي ليس

مؤمناً ولا كافراً) وأنه مخلد في النار إذا لم يتب قبل الموت، وقد عاش في أيام عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، والفكر الإعتزالي يقوم على فكرتين أساسيتن هما:

.الأولى: القول بأن الإنسان مختار بشكل مطلق في كل ما يفعل، فهو يخلق أفعاله بنفسه، ولذلك كان التكليف، ومن أبرز من قال ذلك "غيلان الدمشقي"، الذي أخذ يدعو إلى مقولته هذه في عهد "عمر بن عبد العزيز" حتى عهد "هشام بن عبد الملك"، فكانت نهايته أن قتله هشام بسبب ذلك.

.الثانية: القول بأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ولكنه فاسق فهو بمنزلة بين المنزلتين، هذه حاله في الدنيا أما في الآخرة فهو لا يدخل الجنة لأنه لم يعمل بعمل أهل الجنة بل هو خالد مخلد في النار، ولا مانع عندهم من تسميته مسلماً باعتباره يظهر الإسلام وينطق بالشهادتين ولكنه لا يسمى مؤمناً.

ثم حرر المعتزلة مذهبهم في خمسة أصول هي التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن مبادئ المعتزلة الاعتماد على العقل كليًّا في الاستدلال لعقائدهم، وكان من آثار اعتمادهم على العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها على العقل وليس على النص[1]، واتفق المعتزلة على أن كلام الله محدث مخلوق، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة في القرآن، ومن أهم معتقداتهم كذلك أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق لما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة[2].

2. مرحلة النشأة:

ما يهمنا أساسا في فكر المعتزلة هو أثرهم في نشأة الدرس البلاغي العربي، ففي هذه المرحلة الأولى من بديات دخول الأعاجم الإسلام؛ بدأ الذوق الفني يفسد مع انحراف في ملكات النفوس العربية، فكان الواجب بيان هذه الملكة والمحافظة عليها خاصة من أجل معرفة وفهم الأسرار الإعجازية للقرآن الكريم، ومع صدر الدولة العباسية كثرت التآليف وانتشرت، فراجت سوق المناظرة والجدل وعلم الكلام، دون إهمال طبيعة العرب في حبهم للبلاغة، فقد جُعِلت طريقا موصلة إلى الله تعالى، ومن هنا نصّب المعتزلة أنفسهم للدفاع عن الدين أمام الخصوم من الديانات الأخرى أساسا، ومن أصحاب الفرق الإسلامية التي تخالفهم الرأي، وكانت هذه الخصومات تسدعي حضور حجة قوية، ودليل يستخدم في محله، وهذا لا يكون إلا لرجل فصيح بليغ يعرف كيف يوظف أساليب القول، وبما أن المعتزلة يوظفون العقل كان لهم النصيب الأوفر من امتلاك فنون القول، فصارت البلاغة لديهم أداة للجدال والنقاش، لأن الخصومة الواقعة هي خصومة قول وبيان لا خصومة سلاح، فقد تمكن المعتزلة من مخاطبة كل امرئ بما يفهم ليتمكنوا من إقناعه والاستيلاء على ذهنه، وهذا يكون بالحجة التي تتميز بأسلوب يؤثر على السامع ليحصل الإقناع بأسلوب الإمتاع، وهو من اختصاص البلاغة، لذا اهتم بها المعتزلة، وألَّفوا فيها الكتب والرسائل ووظفوها في الخطب والمناظرات، ولإثبات هذا الكلام لا بد من ذكر أمثلة عن الأعلام الذين تصدروا المشهد البلاغي لدى المعتزلة في مرحلة النشأة، لأنها مرحلة أساس في نشأة وتدوين التراث البلاغي العربي:

- **أ- بشر بن المعتمر:**

هو أبو سهل بشر بن المعتمر شيخ المعتزلة فى عصره. وُلد بِشر بالكوفة، وسكن بغداد، وتوثقت الصلة بينه وبين الخليفة هارون الرشيد والبرامكة، ويُعدُّ بِشر من فصحاء المتكلمين وبلغائهم، ويُعدُّه البعض من أوائل مؤسسي علم البلاغة العربية، وقد أسس بِشر فى بغداد طائفة البِشْرية من المعتزلة، وأورد الجاحظ له بعض أقواله وأشعاره فى كتابي "البيان والتبيين" و"الحيوان"، ولبِشر العديد من المؤلفات فى علم الكلام، منها : الكفر والإيمان والإمامة والعدل والرد على الخوارج، وقد عمر بشر طويلاً، وتُوفُّى ببغداد عام210 هـ[3].

كان بشر بن المعتمر كاتبا متقنا وشاعرا مجدا فقد ذكر له الجاحظ قصيدتين تكلم فيها عن الحيوان وطباعه وغذائه مشبها بعض الطوائف بطباع هذه الحيوانات[4]، كما يعد بشر بن المعتمر –وعلى غرار باقي المعتزلة – من رواة الشعر وحفاظه، قال عنه الجاحظ: « وروت المعتزلة كلهم رواية عامة الأشعار، وكان بشر أرواهم للشعر خاصة»[5] ولا بد لكل متكلم عن نشأة البلاغة أن يورد الصحيفة المشهورة لبشر والتي ذكرها الجاحظ في " البيان والتبيين" فقد مرّ بِشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السّكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو يناظر، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وهذه الصحيفة هي ورقات رواها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في الجزء الأول، ثم تناقلها الناس عنه، وقد أوردها في "باب ذكر الناس من البلغاء والخطباء والأدباء والفقهاء والأمراء، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل"، أورد فيه ناسا من الخطباء وآراءهم في البلاغة والخطابة، وكان أول ذلك الكلام: « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكلّ عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع، وأعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعّر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ (أرد) معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف...»[6] فبشر بن المعتمر كان من أكثر الناس عناية بالخطابة وأصولها، لأنها وسيلة المعتزلة عموما في المناظرة والإقناع والظهور على الخصم، لذا تعد صحيفة بشر بن المعتمر صحيفة نقدية قيمة تعد من بذور البحث البلاغي الأول[7]، ففي الصحيفة التي أوردها الجاحظ في البيان والتبيين، والمنسوبة إلى بشر بن المعتمر؛ فيها مقدمات وأسس تقوم عليها البلاغة العربية، من ذلك تكلمه عن أهم شروط فصاحة الكلام، وهي اجتناب التوعر في الكلام مما يؤدي إلى تعقيده، وبالتالي لا يكون المعنى مفهوما، فلا فائدة من كلامك الذي لن يصل إلى الإقناع، ومن بين أهم القضايا التي شغلت العلماء قديما وحديثا قضية اللفظ والمعنى، فكان السؤال المتداول بين الجميع: هل هل القيمة الجمالية في النص تعود إلى اللفظ أم إلى المعنى أم إبى كليهما؟ ومما يراه بشر بن المعتمر أن العيب قد يكون في اللفظ وقد يكون في المعنى، وقد يكون الشرف في اللفظ ذاته، وقد يحصل الشرف من المعنى، وأما أم القضايا التي تأسست عليها البلاغة في مطابقة الكلام لمقتضى

الحال، يقول بشر بن المعتمر: « ...وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال»[8] فإمساك المعنى وضبطه لا يتم إلا من خلال مراعاة الظروف الخارجية المحيطة بالخطاب، ومنه تبلورت فكرة المقام في البلاغة العربية، وصار يعد هو المقياس الأساس في فهم النصوص وتوجيه المعاني، فالفائدة من الكلام تحصل من موافقة الألفاظ للمعاني وبين أقدار المستمعين ومقامات الكلام.

إن صحيفة بشر بن المعتمر تعد حجر أساس في نشأة الدرس البلاغي تنظيرا وتعليما، فقد شملت مجموعة من المبادئ النقدية والفنية التي تبني علاقة التواصل بين المتكلم والمتلقي، وفق فنون القول التي تحوز أسلوبا فنيا يجعل العقول تذعن لمراد المتكلم، يقول أحمد أمين: « يعد في نظرنا من أقوم ما كتب فيهما (النقد والبلاغة) وربما كل ما كتب المسلمون في البلاغة والنقد مؤسسا عليها...فإذا قلنا أن هذا بفضل بشر هذا المعتزلي وفضل الجاحظ المعتزلي، أيضا تأسست البلاغة النقد لم نبعد عن الصواب»[9] فهذه الصحيفة تبين للأديب الباحث عن بلاغة القول الأوقات التي تسمح بإتقانه مع جودة القريحة، و الدعوة إلى البعد عن التعقيد والتوعر في اختيار الألفاظ حتى لا ينفر السامع من المتكلم، وهذا يتحقق بمشاكلة اللفظ للمعنى، من خلال إلباس المعاني ما تستحقه من الألفاظ، لأن أقدار الألفاظ من أقدار المعاني التي تؤخذ من أقدار السامعين، وأحوالهم، مع مراعاة أهم شيء في البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فمقامات الكلام يجب أن يحسب لها ألف حساب، لأنها الموجهة للخطاب.

- **ب – الجاحظ:**

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء الذي وُلد في البصرة سنة 159هـ، ينتسب الجاحظ إلى بني كنانة فهو بصريٌّ، وقد نشأ عصامياً معتمداً على نفسه في كسب رزقه، كما أحبّ العلم واللغة والأدب فتعلم على أيدي العلماء البصريين التاريخ الصحيح واللغة الأصيلة، وأما عن تاريخ وفاة الجاحظ فهو سنة 255هـ[10]، له مؤلفات عديدة أشهرها، البيان والتبيين وكتاب الحيوان.

يعد الجاحظ من أكابر المعتزلة الذين أسسوا للدرس البلاغي من خلال التكلم عن شؤون البيان وقضاياه، من خلال كتابه "البيان والتبيين" ففيه فصل الكلام في شؤون الخطابة والخطباء، ووضع إشارات واضحة عن فكرة النظم وأثرها في بناء الكلام، وكشف إعجاز القرآن الكريم، وقد عرض أيضا للصور البيانية لآيات القرآن الكريم.

البيان والتبيين: كلمة البيان لدى المتأخرين تختلف تماما عما استعمله الجاحظ لهذا اللفظ، فهو يريد به الإفهام والتعبير ونقل الأفكار، يقول الجاحظ: « البيان اسم جامع لكل شيئ كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شيئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان»[11] فالبيان عند الجاحظ يكون كل وسيلة يبين المعنى وتعبر عنه، وحتى يتحقق هذا البيان والتبيين أو لنقل الفهم والإفهام فإنه يرجع إلى خمسة أمور هي:[12]

- اللفظ: أفضل البيان ما كان باللفظ والكلام، فالكلام أبلغ من أن تصمت، يقول الجاحظ: « وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، بالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة ومواضع الكلام المحمودة كثيرة وطول الصمت يفسد اللسان»[13] فاللفظ والتلفظ عند الجاحظ هو البيان بمعناه الخاص الذي يقصد به طرق القول الجميل المؤثر، وهو ما تنشده البلاغة العربية، فمن ينتقي من الكلام ما فيه بهاء ورونقا وجمالا هو الشخص البليغ الذي سوف يمتلك البيان ويسمى أديبا أو بليغا، فمن يمتلك ناصية اللغة الجميلة التي تحوز عناصر فنية محددة؛ هو الذي يمتلك البيان الذي به الفهم والإفهام، وهو عين البلاغة العربية.

- الخط: وهو أبقى أثرا، لأن اللسان أكثرا هذرا، فالكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، فالخط والكتابة جزء مهم من عملية الفهم والإفهام الذي يدور حوله البيان، فالخط من أسباب امتلاك البلاغة عند اتقانه.

- العقد: وهو الحساب دون اللفظ والخط، وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالحساب؛ فقدان جمهور المنافع، وقد تكلم الله عز وجل في كثير من الآيات عن الحساب، ليكون دليلا على أهميته للبليغ حتى يحوز البيان.

- الإشارة: أما الإشارة فباليد وبالرأس، وبالعين والحاجبين وغيرهم، والإشارة شريك اللفظ فقد تنوب عنه وقد تغني عن الخط، والإشارة تكون في أمور يسترها بعض الناس على بعض.

- النِّصبة: هي الحال الناطقة بغير لفظ، والمشيرة بغير اليد، ومنها السماوات والأرض، وحال المدن...

مما رأيناه من تفصيل لأمور البيان والبلاغة عند الجاحظ؛ نرى أنه استطاع أن يضع الأسس النظرية للبلاغة العربية مستعينا بالنصوص التطبيقة من كلام العرب ومن القرآن الكريم، فالجاحظ أثره واضح في نشأة البلاغة العربية.

3. مرحلة التطور:

بعدما تأكدنا من الدور البارز للمعتزلة في نشأة الدرس البلاغي تنظيرا وتطبيقا؛ سوف نبحث عن الأعمال التي جعلت البلاغة العربية تشهد تطورا، فتدوين مسائل البلاغة وقضاياها وتعريف مصطلحاتها إنما كان على عاتق المعتزلة؛ الذين ظل سعيهم ونشاطهم مطردا دون كلل أو ملل، بل وأخذت طابع الدقة والإتقان، وهذه المرحلة شهدت بروز العديد من العلماء الذين كان دورهم كبيرا في تطوير البلاغة العربية، منهم الرماني والصاحب بن عباد، والمرزباني، والقاضي عبد الجبار والشريف المرتضي، وكنموذج سنختار القاضي عبد الجبار الذي يمثل مرحلة تطور البلاغة العربية.

-القاضي عبد الجبار[415]هـ:

القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل، العلامة المتكلم، شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهمذاني صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية، سمع من علي بن إبراهيم بن سلمة القطان، ولعله خاتمة أصحابه، ومن عبد الله بن جعفر بن فارس بأصبهان، ومن الزبير بن عبد الواحد الحافظ، وعبد الرحمن بن حمدان الجلاب، حدث عنه: أبو القاسم التنوخي، والحسن بن علي الصيمري الفقيه، وأبو يوسف عبد السلام القزويني المفسر، وجماعة من الناس، ولي قضاء القضاة بالري ، وتصانيفه كثيرة تخرج به خلق في الرأي الممقوت، مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة من أبناء التسعين[14] .

بدأ اتجاه المعتزلة عموما ينصرف ناحية الإعجاز البياني للقرآن الكريم، خاصة بعد ظهور فرقة الأشاعرة الذين كان تنافسهم شديدا مع أصحاب الاعتزال، وعلى سبيل المثال نذكر "الباقلاني" صاحب كتاب"إعجاز القرآن" الذي استطاع أن أن يقف نِدا للمعتزلة ويدحض مزاعمهم في كون الإعجاز إنما هو إعجاز بلاغي فحسب، حتى ظهر قاضي البويهيين؛ القاضي عبد الجبار الذي كانت له تصانيف كثيرة أهمها كتابه: "المغني في أبواب التوحيد والعدل" وقد خصص منه الجزء السادس عشر لإعجاز القرآن، فقد عرّف فيه مصطلح الإعجاز، وبين ضرورة الوقوف على صحة النبوة، والنظر في أدلتها ومعجزاتها، وتحقيق ما فيها من البرهان على صدق الرسول ﷺ في دعواه، وأن القرآن الكريم المحفوظ المنزه عن التحريف القرآن يعد بذاته دليلا أصيلا على صدق النبوة[15]، وأهم شيء أكد عليه القاضي عبد الجبار هو أن الإعجاز في القرآن الكريم إنما يقع بلاغيا في باب الفصاحة مثلا، يقول القاضي عبد الجبار: « للكلام الفصيح مراتب ونهايات؛ وأن جملة الكلمات وإن كانت محصورة، فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه... فتختلف لذلك مراتبه في الفصاحة، فيجب أن لا يمتنع أن يقع فيه التفاضل، وتبين بعض مراتبه من بعض، ويزيد عليه قدرا يسيرا أو كبيرا. وما هذا حاله فالتحدي صحيح فيه، لأن فيه مقادير معتادة تصح بها زيادات في الرتب غير المعتادة، فالفصاحة في الكلام معقولة وتتفاضل ويكون لها رتب ولا تمتنع الزيادة فيها، وقد يكون ذلك الزائد خارجا عن طرق العادة»[16] إن خروج القرآن على قدر الفصاحة المألوفة عند العرب يوجب كونه معجزا بانفراده، واختصاصه بنظم من دون هذا الوجه لا يوجب كونه معجزا، وإنما يقوي كونه معجزا[17]، ويمضي القاضي عبد الجبار في بيان إعجاز القرآن الكريم من جهة فصاحته، يقول في هذا الشأن: «قال شيخنا أبو هاشم: إنما يكون اللفظ فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين. لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا، فإذن؛ يجب أن يكون اللفظ جامعا لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون على نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه الذي يتبين عند كل نظم وعند كل طريقة»[18] فالفصاحة تتحقق عندما تجتمع جزالة اللفظ وصحة المعنى، ويثبت أن الفصاحة المقصودة هي التي تحقق نظم القرآن، يقول القاضي عبد الجبار: « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام؛ وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة،

وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها...ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انظم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانظمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة»[19] فالألفاظ تحصل لها مزية الفصاحة بملاحظة مكانها في سياق النظم والتأليف، فكلما كانت اللفظة متلائمة مع نظيراتها من الألفاظ الأخرى في الكلام حققت النظم المنشود، وبالتالي تحقق الفصاحة التي بها يقع إعجاز القرآن الكريم.

فالفصاحة عند القاضي عبد الجبار؛ إنما يقصد بها نظم الكلام الذي يتعلق بأصول تركيب أجزائه، وضم بعضه إلى بعض لأن: « القرآن نزل بلغة العرب، وليس المراد أنه نزل بلغتهم إلا أن الكلمات التي يشتمل القرآن عليها في لغتهم قد تواضعوا عليها، فأما هذا النظام المخصوص فليس في اللغة، كما أن شعر من ابتدأ الشعر ليس في اللغة من ذلك الحد، وإن لم يخرج عن أن يكون منظوما من لغة العرب»[20] فالقاضي عبد الجبار من أكبر علماء المعتزلة الذين استطاعوا أن يدافعوا عن آرائهم خاصة ما تعلق منها بالمسائل البلاغية والتي لها ارتباط بالإعجاز القرآني، مستخدما البلاغة كسلاح يواجه به الخصوم ويقنعهم بآرئه المستمدة من آراء المعتزلة جميعا، ومن هذا يكون المعتزلة ومنهم القاضي عبد الجبار قد ساهموا مساهمة واضحة في تطوير البلاغة العربية نظريا وتعليميا.

4. مرحلة الإزدهار:

وصلت البلاغة إلى مراحل متقدمة من النضج والإزدهار بداية من القرن السادس هجري، هذا القرن الذي كان للمعتزلة اليد الطولى في شتى المجالات، ومنها ما تعلق بعلوم القرآن وعلوم العربية، فقد كان التنافس كبيرا بين المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة في تفسير القرآن وبيان الوجه الذي يتحقق منه الإعجاز، ونخص ذكرنا هنا الإعجاز البلاغي الذي يعد ميدان التباري بين المعتزلة والفرق الأخرى، لبيان مكامن الإعجاز في المعاني والبيان والبديع...ولعل أفضل من سنمثل به هذه المرحلة المزدهرة، علم من أعلام المعتزلة إلى يومنا ، وهو جار الزمخشري صاحب أساس البلاغة وصاحب الكشاف.

- **الزمخشري:**

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، جار الله، ولد بزمخشر إحدى قرى خوارزم، يوم 27 من رجب، 467هـ، نشأ في أسرة فقيرة ولكنها من بيت دين وصلاح، رحل إلى بخارى لطلب العلم، وتنقل بين خوارزم وخراسان، ثم دخل مكة وجاورها حتى أطلق عليه "جار الله" وهناك ألف معظم كتبه، كتفسير الكشاف، وأساس البلاغة، وغيرها، والزمخشري إمام كبير في التفسير والنحو والأدب، متقنا في علوم شتى، أما عن شيوخه فقد عاصر العديد من العلماء وتتلمذ على أيدهم، نذكر منهم: محمود بن جرير الأصفهاني، ركن الدين محمد الاصولي، ...أما تلاميذه فمنهم الكثير نذكر منهم: علي بن عيسى العلوي، أبو يوسف يعقوب بن علي البلخي،

وغيرهم كثير، وقد ترك الزمخشري تراثا عظيما من المصنفات العلمية الرائدة، منها: أساس البلاغة، جواهر اللغة، ديوان الزمخشري، وأهم المصنفات تفسيره للقرآن الكريم المسمى: "الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل"[21] .

وسنركز في عملنا هذا على كتابين مهمين الأول "أساس البلاغة" والثاني وهو الأهم "تفسير الكشاف" الذي فيه زبدة أفكار الزمخشري، فكتاب " أساس البلاغة" أساس البلاغة للزمخشري يعد من أهم المعاجم اللغوية القديمة التي تهتم بالألفاظ العربية وبلاغتها؛ فقد ذكر فيه المصنف المجازات اللغوية والمزايا الأدبية وتعبيرات البلغاء، وقد رتب مواد الكتاب ترتيبًا ألفبائيًا على حسب حروف المعجم، وتتمثل طريقة عرض المؤلف للكتاب في أنه يشرح الكلمة في العربية، مُطعمًا الشرحَ بالقرآن والأحاديث النبوية، وبالأشعار والأمثال العربية، ثم يذكر الاستعمالات المجازية للكلمة المشروحة، وقد عني فيه عناية ظاهرة بما يكتسبه اللفظ من الدلالات المجازية بعد تحديده لدلالاته الحقيقية، فالبلاغة عند الزمخشري تنهض على هذا الأساس، وإن السبيل إلى معرفة مواضع البلاغة في الأساليب إنما يتأتى من معرفة ما تؤديه الألفاظ من الدلالات الحقيقية والمجازية، يقول الزمخشري: « ولما أنزل الله كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق، وونت عنها خطا الجياد القرح ،كان الموفقُ من العلماء الأعلام ... للنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقَف، وبأسراره ولطائفه أعرف »[22] فالهدف من تأليفه " أساس البلاغة"هو معرفة وجوه البلاغة في أقوال العرب، وفي القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، فالهدف ديني وعلمي.

وأما تفسير الكشاف فعنوانه الكامل هو " الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل" وإلى جانب التفسير كان يحمل كما هائلا من مسائل البلاغة وقضاياها، موظفا الدلائل التطبيقية بالأمثلة والشواهد من القرآن الكريم خاصة ومن كلام العرب، وهو عصارة مجهودات السابقين من المعتزلة وحتى من غيرهم، فكل الآراء اللغوية والبلاغية إنما هي في خدمة التوجه الإعتزالي، إذ إن تأويل الآيات وليها لتخدم الفكر الإعتزالي كان من الجانب البلاغي أساسا، فتفسيره للآية الكريمة :{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...} يقول: « فإني قريب تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله، بحال من قرب مكانه»[23]، وسنورد بعض الأمثلة من أقسام البلاغة من المعاني والبيان والبديع:

اهتم الزمخشري بعلم المعاني بمفهومه الحديث في تفسيره الكشاف فقد تكلم عن التقديم والتأخير وأسلوب القصر، والإنشاء الطلبي وغير الطلبي، وكنموذج لفرع من علم المعاني سنختار فرعا من الإنشاء الطلبي، ألا وهو الاستفهام، حيث توقف الزمخشري طويلا عند الآيات التي تحمل أسلوب الاستفهام في بيان حدوثه على أصله أو خروجه إلى أغراض أخرى تفهم من سياق الآيات ومن أسباب النزول، وكذلك من الصيغة التي يرد فيه هذا الأسلوب، فقد بين الأسباب البلاغية التي تجعل من الاستفهام يقصد به أمر آخر غير الاستفهام، من ذلك قول الله تعالى:{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} يقول :«تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخيرولا يريد إلا الخير»[24] والزمخشري

لا يحيد عن آراء النحاة في تفسير الجملة الاستفهامية فهو يرى وجوب الصدارة لحروف المعاني ومنها أدوات الاستفهام، هو أن تكون الكلمة قادرة على إحداث التغيير داخل الجملة التي هي فيها، وحسب هذا المنطلق، يجب أن تكون لأدوات الاستفهام الصدارة في الجملة، لأنها إذا تقدم عليها شيء من الجملة فقدت معنى الاستفهام، فتقديم أدوات الاستفهام هو الذي يعين على إفادة معنى الاستفهام في الجملة الاستفهامية، يقول "الزمخشري": « للاستفهام صدر الكلام ولا يجوز تقدم شيء مما في حيزه عليه »[25] فالتفسير البلاغي للاستفهام ينطلق من القاعدة النحوية التي تدل عليه من خلال الصيغة ومن خلال المقام فأغلب المفسرين أمثال السيوطي والزمخشري وغيرهم، فهؤلاء تجد في مؤلفاتهم كلاما أو حتى إشارات لغوية ونحوية لا تغفل دور المقام في توجيه الدلالات البلاغية، وهذا شمل كل العلوم والمباحث والتي من بينها الاستفهام، ومثال ذلك قول الله تعالى: { هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ} قال "الزمخشري": « مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي »[26] فالتفسير البلاغي الذي حمل معنى النفي إنما كان منطلقه نحوي بوجود من الزائدة على الاستفهام مما جعله ينتقل من الاستفهام حقيقة إلى معنى النفي، وقد أورد الزمخشري من هذا التفسير الكثير في الكشاف.

أما علم البيان فقد بيّن الزمخشري أوجه الجمال والبلاغة فيها ليصل بها إلى بيان الإعجاز في القرآن الكريم، ومن ذلك التشبيه، ويطلق عليه المثل، ويرى أنه من أنجع الوسائل في إقامة الحجة، يقول الزمخشري: « ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني...وفيه تبكيت للخصم الألد...والمثل في أصل كلامهم بمعنى المِثل وهو النظير»[27]فالمثل عند الزمخشري يقصد به المثل ويقصد التشبيه، ويبين أن ضرب المثل إنما جيء به ليكون حجةتمكن ضارب المثل من تبكيت الخصم بحجة لا يمكن ردها لأنها مستمدة من الواقع الذي يعاينه، من ذلك تفسيره لقول الله تعالى:{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} يقول الزمخشري: « شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن، من جهة أهل الإسلام بالصواعق»[28]فجعل الزمخشري التشبيه سلاحا يحاجج به أهل الفرق الأخرى من غير المعتزلة، فإن التشبيه يجعل العقول تذعن لرأي صاحب المثل، وهو ما يريده المعتزلة.

ومن أظهر الأبواب البلاغية التي تظهر فكر المعتزلة؛ هو توظيفهم الكناية بما يخدم معتقداتهم، ففي تفسير الآية الكريمة:{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} يقول الزمخشري: «لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر. ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت. حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد»[29] فالزمخشري عالج هذه الكناية بما يتوافق مع معتقد المعتزلة، في أن الاستواء يقصد به الملك.

فالملاحظ أن كتاب الكشاف هو كتاب تطبيقي لمسائل البلاغة وخاصة الإعجاز، فما كان نظريا عند عبد القاهر الجرجاني جعله الزمخشري تطبيقا في تفسيره من جهة إظهار نظم القرآن الكريم وما فيه من إعجاز يظهر بلاغة راقية معجزة تكون حجة لكل من أنكر من القرآن مسألة.

5. خاتمة:

في خاتمة بحثنا نكون قد أثبتنا مرحلة تاريخية مهمة في التأليف البلاغي وتطويره، ما بين القرنين الثاني والسادس للهجرة، فقد كان للمعتزلة الذين يمثلون مذهبا دينيا كلاميا الدور الكبير في نشأة الدرس البلاغي من خلال تقديم الملاحظات اللغوية الدقيقة، كما كان لهم الفضل في تطوير وازدهار البلاغة من خلال إظهار الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وهو ما برز فيه الجاحظ والقاضي عبد الجبار والزمخشري وغيرهم كثير من أعلام المعتزلة، فقد كان هدفهم الأسمى هو الدفاع عن الإسلام بالحجة العقلية الدامغة من خلال توظيف اللغة في جانبها البلاغي بالأساس، هذه اللغة التي أخضعوها للفلسفة والمنطق، ومنه نخلص إلى جملة من النتائج نذكر منها:

1- يمكن أن نعد المعتزلة هم من أسس للدرس البلاغي في نشأته، وهذا بما وضعه بشر بن المعتمر من آراء بلاغية في صحيفته المشهورة، تؤسس لكل من أرد البلاغة من فنون القول الجميل.

2- جهود الجاحظ البلاغية أسست للمواضيع الكبرى في البلاغة العربية، كالخطابة، وقضية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، التي تبين دور المقام في توجيه الكلام.

3- إهتمام المعتزلة بقضية الإعجاز مكنتهم من امتلاك الوسائل البلاغية التي تجعلهم يتفوقون على من يناظرهم في جل القضايا المرتبطة بالقرآن الكريم، وعلى رأس هذه القضايا بيان النظم الذي جعل القرآن الكريم يحوز ميزة الإعجاز.

4- ازدهار البلاغة كان على المعتزلة الذين نقلوا الدرس البلاغي من الجانب النظري إلى الجانب العملي التطبيقي، وعلى رأس هذه المرحلة نجد الزمخشري الذي طبق نظرية النظم للجرجاني في تفسيره للقرآن الكريم المسمى" الكشاف".

5- يخرج المعتزلة كثيرا بآراء بلاغية خاصة بعيدة عن منطق اللغة العربية؛ وهذا حتى تتوافق مع معتقداتهم، وآرائهم، من ذلك تفسيرهم للكنيات بما هو بعيد عن حقيقة الكناية.

6- فتح المعتزلة باب التأويل أكثر من غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، وهذا لأنهم يغلبون العقل على النصوص، مما يجعلهم يؤولون الكثير من النصوص بما فهمه عقلهم، ولو خالف بعض النصوص المنقولة.

6.المراجع:

[1] ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، مانع بن حماد الجهني، المجلد الاول، ص65-70.

[2] الشهرستاني(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم):الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 1992، ج1، ص38.

[3] ينظر : الزركلي(خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي): كتاب الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002، ج2، ص55، والشهرستاني: ج1، ص56، والجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص41(الهامش)

[4] الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى بابي الحلبي،ط2، 1967، مصر. ج6، ص 284.

[5] الجاحظ: الحيوان، ج6، ص 406.

[6] الجاحظ : البيان والتبينن، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص 135، 136.

[7] ينظر: وليد قصاب: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، دار الثقافة قطر، 1985، ص 67.

[8] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص136.

[9] أحمد أمين : النقد الادبي مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1963، ص 261،260.

[10] جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية،مؤسسة هنداوي، 2013، مصر، صفحة 571.

[11] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 76.

[12] نفس المرجع: ج1، ص76-83.

[13] نفس المرجع: ج1، ص272.

[14] الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 2001م، ج17، ص 245،

[15] القاضي عبد الجبار: أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: أمين الخولي، ج16، ص160.

[16] نفس المرجع: ج16، ص215.

[17] ينظر : نفس المرجع ، ص 321.

[18] نفس المرجع: ج16، ص197.

[19] نفس المرجع : ج16، ص 198.

[20] نفس المرجع: ج16، ص304.

[21] الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، جار الله، الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، تحقيق: أحمد أحمد الموجود، مكتبة العبيكان، ط1، 1998، الرياض، ج1، ص5-25.

[22] الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، 1953، ط1، القاهرة، مقدمة الكتاب.

[23] الزمخشري: الكشاف، ج1، ص 172.

[24] نفس المرجع: ج1، ص93.

[25] الزمخشري: المفصل في علم العربية، دار الجيل، ط2، بيروت، ص320.

[26] الزمخشري: الكشاف، ج3، ص 361.

[27] نفس المرجع: ج1، ص55.

[28] نفس المرجع : ج1، ص60.

[29] نفس المرجع: ج4، ص67.